تمهيـد

□ تمهيد □

اعلم يا أخي ، أن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته ، ويجمع قلبه على محبته ، شرح صدره لقبول صفاته العلى ، وتلقيها من مشكاة الوحي ، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول ، وتلقّاه بالرضا والتسليم ، وأذعن له فاستنار به قلبه ، واتسع له صدره ، وامتلأ سرورًا ومحبة ، وأنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة ، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليها حاجة ، فاشتد بها فرحه ، وعظم بها غناؤه ، وقويت بها معرفته ، واطمأنت إليها نفسه ، وسكن إليها قلبه ، فجال من المعرفة في ميادينها ، وأسأم عين بصيرته في رياضها وبساتينها ؛ لتيقنه أن شرف العلم تابع لشرف معلومه ، ولا معلوم أعظم وأجل ممن هذه صفته ، وأن شرفه أيضًا بحسب الحاجة إليه ، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها ، ومحبته وذكره والابتهاج به ، وطلب الوسيلة إليه ، والزلفى عنده ، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف ، وله أطلب ، وإليه أقرب ، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل ، وإليه أكره ، ومنه أبعد .

والله تعالى ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه ، فمن كان لذكر أسمائه وصفاته مبغضًا ، وعنها نافرًا ومنفرًا ، فالله له أشد بغضاً ، وعنه أعظم إعراضاً ، وله أكبر مقتاً . حتى تعود القلوب إلى قلبين .

فالقلب الأول :

قلب ذكر الأسماء والصفات قوته وحياته ، ونعيمه وقرة عينه ، لو فارقه ذكرها ومحبتها لحظة لاستغاث .

فلسان حاله يقول :

يُراد من القلب نسيانكـمْ ... وتأبى الطبـاع على الناقـلِ

ويقول :

وإذا تقاضيتُ الفؤاد تناسيًا ... ألفيت أحشائي بذاك شِحاحَا

ويقول :

إذا مرضنا تداوينا بذكركمُ ونتركُ الذكر أحيانًا فننتكسُ

فليس القلب الصحيح قط إلى شيء أشوق منه إلى معرفة ربه تعالى ، وصفاته وأفعاله وأسمائه ، ولا أفرح بشيء قط كفرحه بذلك ، وكفى بالعبد عمىً وخذلانًا أن يضرب على قلبه سرادق الإعراض عنها ، والنفرة والتنفير ، والاشتغال بما لو كان حقًا لم ينفع إلا بعد معرفة الله ، والإيمان به وبصفاته وأسمائه .

والقلب الثاني :

قلب مضروب بسياط الجهالة ، فهو عن معرفة ربه ومحبته مصدود ، وطريق معرفة أسمائه وصفاته كما أنزلت عليه مسدود ، قد قمَّش شُبهًا من الكلام الباطل ، وارتوى من ماء آجن غير طائل ، تعجُّ منه آيات الصفات وأحاديثها إلى الله عجيجًا ، وتضج منه إلى منزلها ضجيجًا ، بما يسومها تحريفا وتعطيلًا ، ويؤول معانيها تغييرًا وتبديلًا(١).

وهذا البحث على طوله يدور حول ثلاثة من أسماء ربنا عز وجل وهي : الحَكَمُ ، والحكيم ، والعدل .

والجزاء من جنس العمل يرتبط بهذه الأسماء الثلاثة ، ويجازي الله عباده على حسب ما يصدر منهم من أعمال(٢).

أما الحكم :

فقد قال ﷺ : « إن الله هو الحَكَم ، وإليه الحُكم »(٣).

[والحَكَمُ والحاكم بمعنى واحد ، قاله الزجاج .

وقال الراغب الأصفهاني : الحكم أبلغ من الحاكم ؛ فالحكم هو المتخصص بالحكم ؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿**فابعثوا حكما من أهله ...**﴾ الآية [النساء:٣٥]

---

(١) النونية لابن القيم ص١٠-١٢.

(٢) شريط : الجزاء من جنس العمل للشيخ الطحان .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ، والنسائي ، والحاكم في المستدرك وابن حبان عن هانىء بن يزيد وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٨٤١ .

أي حكمًا متخصصًا ذا دراية به .

والله حكم وحاكم في الدنيا والآخرة][1].

والله حكم في الدنيا بحكمه الكوني ، وحكمه الديني الشرعي .

وحكمه الكوني متعلق بربوبيته وخلقه ، قال تعالى : ﴿ **قال رب احكم بالحق** ﴾ [الأنبياء : ١١٢] فالعباد في قبضته ، والله عز وجل يتصرف فيهم بمشيئته ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن .

وحكمه الديني الشرعي متعلق بإلاهيته قال تعالى : ﴿ **ذلكم حكم الله يحكم بينكم** ﴾ [الممتحنة : ١٠] وقوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾[2] [المائدة : ٥٠] وقوله تعالى : ﴿ **إن الله يحكم ما يريد** ﴾ . وقد يرد بالمعنيين معا كقوله : ﴿ **ولا يشرك في حكمه أحداً** ﴾ [الكهف : ٢٦] .

والله تعالى هو الحكم في الآخرة فيوفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

وهو المنفرد بالحكم :

قال تعالى : ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾ [القصص : ٧٠] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ [القصص : ٨٨].

وقال تعالى على لسان يعقوب : ﴿ **وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾ [يوسف : ٦٧].

وهو خير الحاكمين ، وأحكم الحاكمين :

قال تعالى : ﴿ **ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ [هود : ٤٥] .

---

(١) كلام الشيخ الطحان .

(٢) شفاء العليل لابن القيم ص ٢٨٠ .

وقال تعالى على لسان شعيب : ﴿**وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين**﴾ [الأعراف : ٨٧].

وقال تعالى : ﴿ **... فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين** ﴾ [يوسف : ٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ [التين : ٨] .

وهو الحكيم :

[وهو إما أن يكون فعيل بمعنى فاعل ، فيكون الحكيم بمعنى الحاكم أيضًا ، وإما أن يكون الحكيم بمعنى المحكم المتقن لأمره الكوني والشرعي .

فأوامره الكونية في غاية الإحكام قال تعالى : ﴿ **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ [الملك : ٣] .

وأوامره الشرعية في غاية الإحكام والإتقان قال تعالى : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾ [النساء : ٨٢] .

فحكم الله جلّ وعلا على حسب حكمته ، وهي إصابة الحق قولًا واعتقادًا وعملًا، فالله جل وعلا ليس في وعده ريب ، وليس في فعله جل وعلا عيب](١).

قال ابن القيم رحمه الله في نونيته :

وهُو الحكيمُ وذاك من أوصافهِ ... نوعان أيضًا ماهما عدمانِ
حُكمٌ وإحكامٌ فكل منهما ... نوعان أيضًا ثابتا البرهانِ
والحُكمُ شرعي وكوني ولا ... يتلازمانِ وما هما سيّانِ
بل ذاك يُوجدُ دون هذا مفردًا ... والعكس أيضًا ثم يجتمعانِ
لكنما الشرعي محبوبٌ له ... أبدًا ولن يخلو من الأكوانِ
هو أمره الديني جاءت رسْلُه ... بقيامه في سائر الأزمانِ
لكنما الكوني فهْـو قضاؤهُ ... في خلقه بالعدلِ والإحسانِ
والحكمة العليا على نوعين أيـ ... ضاً حُصّلا بقواطعِ البرهانِ

(١) شريط الشيخ الطحان : الجزاء من جنس العمل .

إحداهما في خلقه سبحانه نوعان أيضًا ليس يفترقانِ
أحكام هذا الخلق إذ إيجادُهُ في غاية الإحكام والإتقانِ
وصدوره من أجل غايات له وله عليها حمد كلّ لسانِ
والحكمة الأخرى فحكمة شرعِهِ أيضًا وفيها ذانك الوصفانِ
غاياتها اللائي حُمِـدن وكونها في غاية الإتقان والإحسان(١)

قال ابن القيم :

وأنه سبحانه : كما أنه البر الرحيم الودود المحسن ، فهو الحكيم الملك العدل ، **فلا تناقض حكمته رحمته ، بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه ، ويضع** عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه ، وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم ، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته ، ولا يلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله : إن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء ولا فرق أصلًا ، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة(٢) .

---

(١) شرح النونية (٢ / ٨١ / ٨٣) .

(٢) ينفي الأشاعرة قطعًا أن يكون لشيء من أفعال الله تعالى علة مشتملة على حكمة ، تقتضي إيجاد ذلك الفعل أو عدمه ، وهذا نص كلامهم تقريبًا ، وهو رد فعل لقول المعتزلة بالوجوب على الله ، حتى أنكر الأشاعرة كل لام تعليل في القرآن ، وقالوا : إن كونه يفعل شيئًا لعلة ينافي كونه مختاراً مريداً . وهذا الأصل تسميه بعض كتبهم : نفي الغرض عن الله . ويعتبرونه من لوازم التنزيه ، وجعلوا أفعاله تعالى كلها راجعة إلى محض المشيئة ، ولا تعليق لصفة أخرى - كالحكمة مثلًا - بها ، ورتبوا على هذا أصولًا فاسدة كقولهم بجواز أن يخلد الله في النار أخلص أوليائه ، ويخلد في الجنة أفجر الكفار ، وجواز التكليف بما لا يُطاق ونحوها. وسبب هذا التأصيل الباطل ؛ عدم فهمهم ألا تعارض بين المشيئة والحكمة ، أو المشيئة والرحمة . ولهذا لم يثبت الأشاعرة الحكمة مع الصفات السبع ، واكتفوا بإثبات الإرادة ، مع أن الحكمة تقتضي الإرادة والعلم وزيادة حتى إن من المعاصرين من أضافها مثل سعيد حوى . وقد أطال ابن القيم في رد شبه الأشاعرة في شفاء العليل ، حيث رد عليهم من ٣٦ وجهًا ، وانظر منهاج السنة (١ /١٢٨) ، والنبوات ص ١٦٣ - ٢٣٠ ، =

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلًا بالرد على هذه المقالة ، وإنكارها أشد الإنكار ، وتنزيه الرب عنها ، كقوله تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون** ﴾ [القلم : ٣٥ ، ٣٦] . فأنكر سبحانه على من ظن به هذا الظن السيىء ، ونزَّه نفسه عنه .

فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلهيته ، لا إله إلا هو ، تعالى عما يقول الجاهلون علوًا كبيرًا .

وقد فطر الله عقول عباده ، على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان ، ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة . فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار ، واستهجنته أعظم الاستهجان .

وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام ، في موضع العقوبة والانتقام ، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء ، من أموالهم وحريمهم ، فأكرمه غاية الإكرام ، ورفعه وكرمه . فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا ، وتشهد على سفه مَنْ فعله . هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها .

فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة ، وعزته وعدله في وضع عقوبته في أوْلى المحالّ بها ، وأحقها بالعقوبة ؟ وأنها لو أدليت بالنعم لم تحسن بها . ولم تَلِقْ ، ولظهرت مناقضة الحكمة كما قال الشاعر :

نعمةُ الله لا تعابُ ولكن ربما استُقبحَتْ على أقوامِ

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بأعدائه الصادِّين عن سبيله ، الساعين في خلاف مرضاته .

ولا تستطل هذا البسط ، فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ، ونزولها منه منازلها في الدنيا ، لتنزل في جوار ربها في الآخرة ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا** ﴾ [النساء : ٦٩] .

قال ابن القيم : الحكيم الذي إذا أمر بأمر كان حسنًا في نفسه ، وإذا نهى

= ومجموع الفتاوى (١٦ /٢٩٩) ، والمواقف ص٣٣١ ، وبحث الشيخ سفر الحوالي : منهج الأشاعرة في العقيدة . المنشور ضمن مجلة البحوث الإسلامية .

عن شيء كان قبيحًا في نفسه ، وإذا أخبر بخبر كان صدقًا ، وإذا فعل فعلًا كان صوابًا ، وإذا أراد شيئًا كان أَوْلَى بالإرادة من غيره . وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده[1] .

وهو العدل :

قال ابن القيم في النونية :

والعدلُ من أوصافِهِ في فعله ومقاله والحُكْمِ في الميـزانِ
فعلى الصراط المستقيم إلهنـا قولًا وفعلًا ذاك في القـرآنِ

قال الهراس : من أسمائه سبحانه العدل ، وهو في الأصل مصدر وصف به للمبالغة ، وأصل العدل والمعادلة المساواة ، يقال : هذا عدل ذلك ، وعديله ، أي نظيره ، ومساويه .

وهو سبحانه موصوف بالعدل في فعله ، فأفعاله كلها جارية على سنن العدل والاستقامة . ليس فيها شائبة جور أصلًا ، فهي كلها بين الفضل والرحمة وبين العدل والحكمة ، وما ينزله سبحانه بالعُصاة والمكذبين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا ، وما أعده لهم من العذاب المهين في الآخرة ، فإنما فعل بهم ما يستحقونه ، فإنه لا يأخذ إلا بذنب ، ولا يعذب إلا بعد قيام الحجة .

وأقواله كلها عدل ؛ فهو لا يأمرهم إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة ، ولا ينهاهم إلا عمّا مضرته خالصة أو راجحة .

وكذلك حكمه بين عباده يوم فصل القضاء ، ووزنه لأعمالهم لاجوْرَ فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] . فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله وحكمه[2] .

[وقال ﷺ : « عَدْلٌ فيَّ قضاؤك » ، فالله عدل في جميع أقضيته في عبده ؛ قضائه السابق فيه قبل إيجاده ، وقضائه فيه المقارن لحياته ، وقضائه فيه بعد

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٤٦٠) . (٢) شرح النونية (٢ / ١٠٤ ، ١٠٥) .

مماته ، وقضائه فيه يوم معاده ، ويتناول قضاءه فيه بالذنب وقضاءه فيه بالجزاء عليه ، ومن لم يثلج صدره لهذا ويكون له كالعلم الضروري لم يعرف ربه وكماله ونفسه وعينه ، ولا عدل في حكمه ، بل هو جهول ظلوم .

وقال الله على لسان نبيه هود : ﴿ **إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابّة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ [هود : ٥٦] . فقوله : ﴿ **إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ مثل قوله ﷺ : « عدل فيّ قضاؤك » وأخبر في النحل أنه يأمر بالعدل ويفعله . وهو أعدل العادلين فما قضى في عبده قضاء إلا وهو واقع في محله الذي لا يليق به غيره ، إذ هو الحكم العدل الغني الحميد][1].

[والله سبحانه وتعالى كما أخبر عن نفسه : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط** ﴾ [آل عمران : ١٨] . والقسط هو العدل ، فشهد الله سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده ، وبالوحدانية في عدله ، والتوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال ، فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولًا وفعلًا ، حيث شهد بها ، وأخبر وأعلم عباده ، وبين لهم تحقيقها وصحتها ، وألزمهم بمقتضاها ، وحكم به وجعل الثواب والعقاب عليها ، فالدين كله من حقوقها ، والثواب كله عليها ، والعقاب كله على تركها ، وقيامه بالقسط مختص به ، كما أنه مختص بالإلهية ، فهو وحده المجازي المثيب المعاقب بالعدل فالشرع والقدر والخلق والأمر ، والثواب والعقاب قائم بالعدل ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلًا** ﴾ [الأنعام : ١١٥] .

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها وتنزيلها منازلها ، وأنه لم يخص شيئًا منها إلا بمخصص اقتضى ذلك ، وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ، ولا يمنع من يستحق العطاء ، وإن كان هو الذي جعله مستحقًا][2] .

[والله يفعل ما يريد ، وحكمه ماض في العبيد ، على النهج السديد][3]

---

(١) شفاء العليل ص ٢٧٤ - ٢٧٧ . (٢) مدارج السالكين (٣/٤٥٧-٤٦٠).

(٣) الشيخ الطحان من شريط : الجزاء من جنس العمل .

﴿ **ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ [الكهف : ٤٩] . وهذا الكمال عدل ، فإن النفي هنا لإثبات كمال الضد .

يقول الله تعالى : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ [النساء : ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئًا** ﴾ [يونس : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد .وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ [هود : ١٠٠ ، ١٠٢].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ النبي ﷺ : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخْذَهُ أليم شديد** ﴾ [هود : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً** ﴾ [الكهف : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ **فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ [الأنعام : ٤٥] .

وقال تعالى في شأن أصحاب السبت : ﴿ **... وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾ [الأعراف : ١٦٥] .

فالله لا يظلم الناس شيئا في دنياهم ، وإنما يؤاخذهم بظلمهم .

ولا يظلمهم في الآخرة .

قال تعالى : ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ [الزخرف : ٧٦ ، ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون**﴾ [الصافات : ٢٢-٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا**

يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى : ﴿ **فاليوم لا تظلم نفس شيئًا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ [يس : ٥٤] .

وقال تعالى في آخر آية أنزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليال : ﴿ **ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ [البقرة : ٢٨١] . ومن تمام عدله أنه لا يحاسب الناس إلا بعد قيام الحجة عليهم، فالتكليف منتفٍ إذا لم تبلغهم الدعوة بمجيء الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** ﴾ [الأنعام : ١٣١] . فمع ثبوت الظلم لهم ، إلا أن الله لا يحاسبهم ؛ فأهلها غافلون لم تبلغهم الدعوة ، فالتكليف مُنتَفٍ .

ويوم القيامة هو يوم الدين ، والله مالك يوم الدين وملكه ، والدين هو الجزاء والحساب والقضاء ، على حسب ما عمله العباد من أعمال ، والمعاني مترادفة ، كما قال القرطبي :

حصادُك يومًا ما زرعتَ وإنَّما ... يُدانُ الفتى يوما كما هُو دائنُ

يقول القائلُ :

إذا ما رمَوْنا رميناهُمُ ... ودنَّاهَمُ مثل ما يقرضونا

والدِّين هو الجزاء في الخير والشر ، كما تدين تدان .

ومن أسماء الله الديّان :

روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله ، عن عبد الله بن أنيس ، قال : قال النبي ﷺ : « يحشر الله العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه مَنْ قرب : أنا الملك أنا الديّان »(١).

قال الحافظ في الفتح : قال الحليمي : هو مأخوذ من قوله : ﴿ **ملك يوم الدين** ﴾ [الفاتحة : ٤] . وهو المحاسب المجازي لا يضيع عمل عامل.انتهى .

وقال الكرماني : المعنى : لا ملك إلا أنا ، ولا مجازي إلا أنا(٢). اهـ .

---

(١) كتاب التوحيد : باب : قول الله تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .

(٢) فتح الباري (١٣ / ٤٦٦) .

وعن عمر بن الخطاب قال : ويل لديّان الأرض من ديَّان السماء ، إلا من عدل[١] .

وفي مرسل أبي قلابة : البر لا يبلى ، والإثم لا يُنسى ، والديَّان لا يموت كن كما شئت ، كما تدين تدان[٢] .

والديّان يطلق على الله كما يطلق على المخلوق ، ولكل موصوف معنى يناسبه من ذلك الاسم ، فقد سمى الأعشى الحرمازي به النبي ﷺ وأقره ، في قصة امرأته عندما هربت منه ، فأتى النبي ﷺ وقال له :

يا سيد الناس وديّان العربْ
إليك أشكو ذِرْبة من الذِّرَبْ
خَرَجْتُ أبْغيها الطعام في رجبْ
فَخَلَفَتْني بنـزاعٍ وحَـرَبْ
أخْلَفَتِ العهدَ ولَطَّتْ بالذَّنَبْ
وتركتني وَسْطَ عِيصٍ ذي أُشَبْ
تَكُدُّ رِجْلَيَّ مساميرُ الخَشبْ
وَهُنَّ شرُّ غالبٍ لمنْ غَلَبْ[٣]

فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم : « وهنَّ شرُّ غالبٍ لِمَنْ غَلَب » .

---

(١) سنده صحيح : ورد في كتاب الرد على الجهمية وفوائد سموية ، ورواه البخاري معلقًا ، قاله الشيخ الطحان ، ونسبه إلى أحمد والطبراني في الكبير وأبي يعلى بسند صحيح ، والبزار ورجاله ثقات .

(٢) قال ابن حجر: أخرجه البيهقي في الزهد ، ورجاله ثقات . انظر الفتح (١٣/٤٦٦).

(٣) نسب صاحب لسان العرب هذه الأبيات إلى أعشى بني مازن ، وقال أيضًا عن ابن الأعرابي : إن هذا الرجز للحرمازي ، أعشى بني حرماز . والذربة : امرأته ، كنى بها عن فسادها وخيانتها إياه في فرجها ، وقيل : أراد سلاطة لسانها ، فخلفتني أي : خالفت ظني فيها . وقوله : لطّت بالذنب . يقال : لطّتِ الناقة بذنبها ؛ أي : أدخلته بين فخذيها تمنع الحالب . انظر لسان العرب (٣/١٤٩٢) .

قال مالك بن دينار: مكتوب في التوراة : كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد[(١)].

فتب إلى مولاك من قريب ، فوالله ما ظلمك من جعلك حسيب نفسك .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد يوم القيامة : يا رب ، ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني ، فيقول : ﴿ **كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا** ﴾ ، وبالكرام الكاتبين شهودًا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لَكُنّ وسُحقا ، فعنكنّ كنت أناضل »[(٢)].

تباركَ من أجرى الأمورَ بحكمه ... كما شاءَ لا ظلمًا أراد ولا هضمَا

أخي ، فحاسب نفسك لنفسك ، وأخلص تخلص ، فالناقد بصير .

العمر ينقصُ والذنوب تزيدُ ... وتُقال عثراتُ الفتى فيعودُ

هل يستطيعُ جحودَ ذنبٍ واحدٍ ... رجلٌ جوارحه عليه شهودُ[(٣)]

والآن تعال معي لترى مصداق القول المبارك لابن القيم : دل الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل .

* * *

(١) اقتضاء العلم العمل .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أنس .. وفي رواية : « ثم يختم على فيه » .

(٣) الكثير مما قلناه في هذا التمهيد من الجمع المبارك للشيخ المبارك الشيخ الطحان من شريطه الجزاء من جنس العمل نقلناه تبركًا بكلامه ، وما بعد ذلك من فصول وأبواب يظهر فيها جهدي الضعيف القاصر .